ماذا تبقّى من هويّة اليسار العربيّ اليوم؟ (آذار ـ نيسان، ٢٠١٠)

لم يكن صعبًا منذ بداية عشرينيّات القرن الماضي، وبعد نهاية الحرب العالميّة الثانية بخاصّة (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥)، تحديدُ هويّة اليساريّ العربيّ، حزبيّاً كان أو غيرَ حزبي: فهو يعتنق الماركسيّةَ ويرى فيها منظورًا متكاملاً للعالم، ويدافع عن المعسكر الاشتراكيّ وطليعتِه الاتحادِ السوفييتيّ، ويرى في الصراع الطبقيّ بين البرجوازيّة والطبقة العاملة مرجعًا للمجتمعات جميعِها، ويعادي الإمبرياليّةَ وحلفاءها والقوى الرجعيّةَ في كلّ مكان.

ومع أنّ هزيمة حزيران التاريخيّة عامَ ١٩٦٧، كما حربُ تيتنام وصعودُ المقاومة الفلسطينيّة، أتاحت، ولو بقدْرٍ، الحديثَ عن هويّةٍ يساريّةٍ جديدة ـ هي قرانٌ سريعٌ بين الماركسيّة والقوميّة ـ فإنّ «الهويّةَ الأصليّةَ» حافظتْ على عناصرَ أساسيّة هي: الكفاحُ من أجل ثورةٍ اجتماعيّةٍ أفقُها الاشتراكيّةُ، والالتزامُ بالماركسيّة في أطيافها المختلفة، ومعاداةُ الإمبرياليّة والصهيونيّة بشكلٍ حاسمٍ لا اضطرابَ فيه، واعتبارُ الوحدة العربيّة القادمة ضرورةً تاريخيّةً.

وواقعُ الأمر أنّ «الشيوعيّة العربيّة،» كما اليسارُ العربيُّ بعامّةٍ، بدأا بالأفول قبل أن يتراجعا في أماكنَ أخرى من العالم. فقد هَزمتْ حربُ حزيران جميعَ القوى التحرّريّة في العالم العربيّ، وأَنتجتْ، سريعًا، الشروطَ الموضوعيّةَ لتوطيد هذه الهزيمة وإعادةِ إنتاجها. فإضافةً إلى اتّساع القمع وصعود «الإسلام النفطيّ،» تمّ التواطؤُ للإجهاز على الحزب الشيوعيّ السودانيّ؛ ثم جاءت الحربُ الأهليّةُ في لبنان، والحصارُ الدمويّ المنظَّم للمقاومة الفلسطينيّة، واعترافُ مصر ـ السادات بإسرائيل، وصولاً إلى احتلال الجيش الصهيونيّ للعاصمة اللبنانية عامَ ١٩٨٢.

هُزم اليسارُ العربيّ، بأطيافه المختلفة، مع هزيمة المشروع الناصريّ. وجَعَلَه «جمودُه التاريخيُّ» (الصادرُ عن أسباب مختلفة) عاجزًا عن التصدّي للهزيمة والتصريح بها. ففي مواجهة تحوّلاتٍ اجتماعيّةٍ وسلطويّةٍ كاسحة، لم يستطعْ هذا اليسارُ تجديدَ ذاته، وبقي متمسّكًا بشعاراتٍ متكلّسة (مثل «الطريق الرأسماليّ») وتحالفاتٍ مميتة، إلى أن تحوّلَ إلى مجموعةٍ من الظواهر الشكلانيّة التي لا تؤثّر في المجتمع ولا تتأثّر به. وما إنْ سقط الاتحادُ السوفييتيّ، مَرْجعُ اليسار العالميّ ومركزُ ثقله، حتى كان اليسارُ العربيّ قد سَقَطَ قبل سقوطه، كما لو كان «بقيا» من الماضي، منقطعًا عن الحاضر والمستقبل معًا.

السؤال الآن: هل أصبح المجتمعُ العربيُّ اليومَ لا يحتاج إلى الفكر اليساريّ، أمْ أنّ الفكر اليساريّ قَبِلَ بهزيمةٍ نهائيّةٍ وآثر الرحيلَ؟ يجيب المجتمعُ في تدهوره المأساويّ عن هذا السؤال بأشكالٍ مختلفة: الغلاءُ الفاحش، واتّساعُ الفقر، وزوالُ الحريّات المختلفة، وغيابُ حقوق الإنسان، وارتفاعُ نِسَبِ الأميّة، وهزيمةُ الثقافة والقيم الثقافيّة، وتسييسُ الدين ذرائعيّاً، وتديُّنُ السياسة بشكلٍ أكثرَ ذرائعيةً، وانطفاءُ دوْر النقابات والمنظّمات الاجتماعيّة، وتقوّضُ المجتمع المدنيّ، وتلاشي الوحدة القوميّة، وصعودُ الطائفيّة، والغطرسةُ الصهيونيّة، وتفكيكُ العراق...

تَطْرح هذه الظواهرُ على «ما تبقّى من الانتماء اليساريّ» الأسئلةَ التالية: لماذا لم تَقُم «القوى اليساريّةُ،» على المستوى النظريّ، بمراجعةٍ نقديّةٍ أو بما هو قريبٌ منها؟ لماذا لم تقترحْ على المستوى السياسيّ ـ الاجتماعيّ برامجَ تردّ على المستجدّات المتعدّدة؟ هل ما زالت الماركسيّةُ صالحةً كأداةٍ للنظر والعمل، أمْ أنّه ينبغي التخلّي عنها أو مزجُها بأفكار أخرى؟ ألا يزال ممكنًا اليومَ الحديثُ عن الطبقات الاجتماعيّة والصراع الطبقيّ؟ وهل لكلمة «اشتراكيّة» معنى أو دلالة؟ وهل تستطيع «بقايا القوى اليساريّة» أن تقوم بتحالفاتٍ فاعلة؟ وما الذي يميّز اليساريُّ من الليبراليّ الجديد؟ وأخيرًا: هل لجميع هذه الأسئلة الآن معنًى؟ وإذا كان لها، أو لبعضها، معنًى حقيقيٌّ أو مفترَضٌ، فما هي الأسئلة الأكثرُ أهميّةً من غيرها؟

تَطْرح مجلةُ الآداب هذه الأفكارَ مدفوعةً بدافعيْن: أوّلُهما التحريضُ على حوارٍ جديرٍ بتاريخ القوى اليساريّة التي لعبتْ، في الماضي، دورًا فاعلاً في الدفاع عن المجتمع وحقوقه المدنيّة والوطنيّة. وثانيهما «الردُّ الجزئيّ» على واقعٍ عربيّ متداعٍ غائمِ الأفق.

ربما يكون في الإجابات التي نتطلّع إليها ما يساعد، ولو بقدْرٍ، على تأمّل سؤالنا الأساس: ما هي هويّةُ اليسار العربيّ اليوم، وهل من الممكن أن يكون لها مستقبلٌ أو أفق؟

فيصل درّاج (عمّان)